فَضْلُ التَّوْحِيدِ

أ.د. صَالِحُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ بْنِ عُثْمَانَ سِنْدِيّ

أُسْتَاذُ الْعَقِيدَةِ بِالْجَامِعَةِ الإِسْلَامِيَّةِ

بسم الله الرحمن الرحيم

فهرس المحتويات

المقدِّمة ٤
العلاقة بين التَّوحيد والحج ٤
فضل التَّوحيد ٦
حقيقة التَّوحيد ١٤
درجات التَّوحيد ومراتبه ١٨
الشِّرك وخطره ٢٣
حقيقة الشِّرك ٢٤
الشِّرك في هذا الزَّمان ٢٦
النَّجاة من الشِّرك ٣١
وصايا خاتمة ٣٢
الوصية الأولى ٣٢
الوصية الثانية ٣٣
الوصية الثالثة ٣٤
الوصية الرابعة ٣٥
الوصية الخامسة ٣٧

فضل التوحيد

الحمد لله المتفرد في رُبوبيته، المتوحد في إلهيَّته، شَهِدَت بوَحْدانيَّته المخلوقات، وخشعت لعظمته الكائنات، وافتقرت إليه جميع البَريّات.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن نبينا محمدا عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليما مزيدا.

صَلُّوا عَلَيْهِ كُلَّمَا ذُكِرَ اسْمُهُ ... فِي كُلِّ حِينٍ غُدْوَةً وَرَوَاحَا

صَلَّى عَلَيْهِ اللهُ مَا شَبَّ الدُّجَى ... وَبَدَا مَشِيبُ الصُّبْحِ فِيهِ وَلاحَا

أما بعد

فإن قطب رحى الشريعة ومقصِدها الأسمى: إخلاصُ الدين لله، وعبادتُه وحده لا شريك له، وسدُّ الذرائع إلى الشرك دِقِه وجِلِه؛ فهذا أصل دين المرسلين، وحقيقة توحيد رب العالمين.

والحديث عن التوحيد في الحج له في النفس وقع؛ فالتوحيد والحج أمران متلازمان لا يفترقان، فإن التوحيد دين الحنيفية، والحج شعار الحنفاء، قال تعالى: ﴿حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ﴾ [الحج: ٣١]، قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: في

تفسير الحنفاء: «حجاجا لله غير مشركين به»، وقال قتادة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «حجاجا لله مسلمين موحدين». ومن تأمل مناسك الحج تبين له أنها إلى التوحيد ترجع، وبه تصطبغ؛ فشعار الحج -الذي هو «التلبية»-: نداء التوحيد، ففي صحيح مسلم من حديث جابر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ الطويل في وصف حجة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**فَأَهَلَّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالتَّوْحِيدِ: لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ، لَبَّيْكَ لا شَرِيكَ لكَ لَبَّيْكَ، إنَّ الحَمْدَ وَالنِّعْمَةَ لَكَ وَالْمُلْكَ، لا شَرِيكَ لكَ**»[(١)]. فالحاج لا يضع قدمه الأولى في هذه العبادة الجليلة إلا وقد رفع صوته بإعلان التوحيد، وثباتِه على هذا العهد المتين.

وكلمة التوحيد: خير القول في أعظم أركان الحج؛ قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**خَيرُ الدُّعاءِ دُعاءُ يَومِ عَرَفةَ، وخَيرُ ما قُلتُ أنا والنَّبيُّون من قَبلي: لا إلهَ إلَّا اللهُ وَحْدَه، لا شَريكَ له، له المُلْكُ وله الحَمْدُ، وهو على كُلِّ شَيءٍ قَديرٌ**» أخرجه الترمذي[(٢)].

وفي الحج إفراده سبحانه بالدعاء في العرصات المباركة: عرفاتٍ ومزدلفةَ وعندَ الجمرات وعلى الصفا والمروة. وفيه إخلاص الطواف والصلاة والذبح والحلق للواحد الأحد جَلَّ جَلَالُهُ.

وفيه الذل والخضوع، والمحبة والرجاء، والتوكل والإخبات لله رب العالمين.

فتجلى لنا أن التوحيد لحمة الحج وسداه، وغايته ومبتدؤه ومنتهاه؛ وذاك أن

(١) أخرجه مسلم (١٢١٨).

(٢) أخرجه الترمذي (٣٥٨٥).

المقصود من الحج: عبادةُ الله وحده في البقاع التي أمر بعبادته فيها؛ فارتباط الحج بالتوحيد إذن ارتباط وثيق؛ وكفى دليلا على ذلك أن البيت العتيق الذي يؤمه الحجاج إنما رُفع على أساس متين من التوحيد الخالص؛ قال تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا﴾ [الحج:٢٦]. قال أهل التفسير: أي هذا كان الشرطَ على أبيكم فمن بعده. ولذا فإن الحجاج حقا ليسوا إلا أهل التجريد والتوحيد؛ قال تعالى: ﴿وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَٰنًا﴾ [المائدة: ٢]، فهم يؤمون بيته سبحانه، ويبتغون فضلا منه ورضوانا، لا يرغبون إلى غيره، ولا يرجون سواه، ولا يخافون إلا إياه.

إن التوحيد أحسن الحسنات وأكملها، وأرفعها وأعظمها وأشرفها، وهو لُبُّ الشريعة، وأساسُها وقاعدتُها، وهو أصل الدين وجِماعه، وظاهره وباطنه، وأوله وآخره.

إنه الذي أُرسلت به الرسل، وأنزلت الكتب، وخلقت لأجله الخليقة، وشرعت له الشرائع، وقامت عليه سوق الجنة، وأسس عليه الخلق والأمر.

إن التوحيد أساس دعوة المرسلين ورأسها وأكمل ما فيها، بلْ ليس في دعوات المرسلين ولا في كُتُب رب العالمين شيءٌ أعظم من التوحيد، فأعظم ما عُني به الأنبياء أجمعون وأكثر ما بيَّنوه واتفقوا على الدعوة إليه والابتداء به قبل غيره والتحذير من ضده: هو التوحيد؛ مع أن مجتمعاتهم كانت تعيش مشكلات

اجتماعيةً، واقتصادية، وأخلاقية، وسياسية، ومع ذلك، فالقضية العظمى في دعوتهم هي التوحيد؛ وما ذاك إلا لأنه أساس الملة، والركن الأكبر في الدين.

إِذَا أَرَدْتَّ أَصْـــــلَ كُلِّ أَصْـــــلِ وَالْحِكْمَةَ الْكُـبْرَى لِبَعْـثِ الرُّسْـلِ

فَإِنَّـــــــهُ عِبَـــــــادَةُ الْإِلَهِ وَتَـرْكُ مَـا يُـدَّعَا مِـنَ الْأَشْـبَاهِ

وقد بيّن جَلَّوَعَلَا هذا في مواضع كثيرة، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ﴾ [النحل:٣٦]، وقال سبحانه: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء:٢٥]. وباستعراض قصص الأنبياء مصداق ذلك.

فهذا نوح وهود وصالح وشعيبٌ عَلَيْهِمُٱلسَّلَامُ أعلمنا سبحانه قولَهم لقومهم في مفتتح دعوتهم: ﴿ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [الأعراف: من الآية٥٩].

وإبراهيم عَلَيْهِٱلسَّلَامُ قال لقومه: ﴿ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُۖ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾﴾ [العنكبوت:١٦]، وقال لهم: ﴿إِنَّنِي بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾﴾ [الزخرف:٢٦- ٢٧].

ويوسف عَلَيْهِٱلسَّلَامُ قال: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾﴾ [يوسف:٣٩]. وعيسى عَلَيْهِٱلسَّلَامُ قال لقومه: ﴿ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾﴾ [المائدة: من الآية ٧٢].

ثم خاتمُ الرسل وإمامُهم محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جاءه أمره عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِي لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلْأُمِّيِّ ٱلَّذِي يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾﴾ [الأعراف: ١٥٨]. وقال سبحانه آمرا إياه: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١﴾ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾﴾ [الكافرون: ١-٢].

وقد بدأ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دعوته بأن نادى في الناس أن لا إله إلا الله -التي هي كلمة التوحيد-؛ فقد أخرج الإمام أحمد عن رَبِيعَةَ الدِّيْلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: **رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَصَرَ عَيْنِي بِسُوقِ ذِي الْمَجَازِ، يَقُولُ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ قُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، تُفْلِحُوا» وَيَدْخُلُ فِي فِجَاجِهَا وَالنَّاسُ مُتَقَصِّفُونَ عَلَيْهِ** -أي مجتمعون-، قال: **فَمَا رَأَيْتُ أَحَدًا يَقُولُ شَيْئًا، وَهُوَ لَا يَسْكُتُ يَقُولُ: «أَيُّهَا النَّاسُ قُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ تُفْلِحُوا» وَوَرَاءَهُ عَمُّهُ أَبُو لَهَبٍ يَقُولُ: إِنَّهُ صَابِئٌ، كَاذِبٌ**[(١)]. ثم ختم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دعوته بقوله قبيل وفاته: «**لَعْنَةُ اللهِ عَلَى اليَهُودِ والنَّصارَى؛ اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيائِهِمْ مَساجِدَ**» يُحَذِّرُ ما صَنَعُوا. متفق عليه[(٢)].

وفيما بين ذلك كانت دعوة التوحيد آخذةً أكبر قدر من دعوته الشريفة.

ولما سأله عمرو بن عبسة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كما في صحيح مسلم: بأي شيء أرسلك

(١) أخرجه أحمد (١٩٠٠٤).

(٢) أخرجه البخاري (٤٣٦)، ومسلم (٥٣١).

الله، قال: «**أَرْسَلَنِي بِصِلَةِ الأَرْحَامِ، وَكَسْرِ الأَوْثَانِ، وَأَنْ يُوَحَّدَ اللهُ لا يُشْرَكُ بِهِ شَيءٌ**»(١).

وحين بعث معاذًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى اليمن أمره أن يبدأ دعوته بالتوحيد، فقال: «**إِنَّكَ تَقْدَمُ عَلَى قَوْمٍ مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ، فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَى أَنْ يُوَحِّدُوا اللهَ تَعَالَى**»(٢).

أيها الكرام.. إن فضائل التوحيد مما يتعذَّرُ إحصاؤه، وتقصر العبارة عن الإحاطة به.

كيف لا والنجاة معلَّقة به، قال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝٨٨ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ۝٨٩﴾ [الشعراء: ٨٨-٨٩]، والقلب السليم هو الموحد، الذي أسلَم لله وحده، وسَلِم وسَلَّم.

كيف لا وقليل هذا التوحيد ينجي من الخلود في النار، وكثيره ينجي من دخولها برحمة الله سبحانه وعياذًا به منها. فالموحد ناج في الآخرة قطعا برحمة الرحيم الرحمن جل في علاه.

عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَنْ شَهِدَ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَأَنَّ عِيسَى عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ،**

(١) أخرجه مسلم (٨٣٢).

(٢) أخرجه البخاري (٧٣٧٢)، ومسلم (١٩).

وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ، وَالجَنَّةُ حَقٌّ، وَالنَّارُ حَقٌّ، أَدْخَلَهُ اللهُ الجَنَّةَ عَلَى مَا كَانَ مِنَ العَمَلِ». متفق عليه(١). هذه هي الجائزة التي وعدها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أهل التوحيد: «**أَدْخَلَهُ اللهُ الجَنَّةَ عَلَى مَا كَانَ مِنَ العَمَلِ**»؛ أي: على أي عملٍ كان يلاقي فيه ربَّه فإنه سيكون من أهل الجنة قطعا؛ إما ابتداءً وإما مآلا؛ فهنيئا لأهل التوحيد!

وقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**فَإِنَّ اللهَ قَدْ حَرَّمَ عَلَى النَّارِ مَنْ قَالَ: لاَ إِلَهَ إِلَّا اللهُ، يَبْتَغِي بِذَلِكَ وَجْهَ اللهِ**»(٢). وما أعظم هذه البشارة للموحدين.

وَلِلتِّرْمِذِيِّ -وَحَسَّنَهُ- أن رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**قَالَ اللهُ تَعَالَى: يَا ابْنَ آدَمَ، إِنَّكَ لَوْ أَتَيْتَنِيْ بِقُرَابِ الأَرْضِ خَطَايَا، ثُمَّ لَقِيتَنِي لَا تُشْرِكُ بِي شَيْئًا، لأَتَيْتُكَ بِقِرَابِهَا مَغْفِرَةً**»(٣).

وهذا يدلُّكَ على عظيمِ شأن التوحيد، وأنَّ التوحيد الحق أعظمُ سببٍ لمغفرة الذنوب، فمن لَقِيَ اللهَ جَلَّ وَعَلَا بذنوبٍ عظيمة حتى إنها تكاد أن تبلغَ حجمَ هذه الأرض، لكنَّه لَقِيَ الله عَزَّ وَجَلَّ بتوحيدٍ صادق ولم يشرك بالله شيئًا فليبشِرْ بمغفرة الله، هذا وعده سبحانه، وهو لا يخلف وعده.

(١) أخرجه البخاري (٣٤٣٥)، ومسلم (٢٨).

(٢) أخرجه البخاري (١١٨٦)، ومسلم (٣٣).

(٣) أخرجه الترمذي (٣٥٤٠)، وأحمد (١٣٤٩٣).

قال ابن القيم في كتابه إعلام الموقعين: «مَحْوُ التَّوْحِيدِ الَّذِي هُوَ تَوْحِيدُ الْكَبَائِرَ: أَعْظَمُ مِنْ مَحْوِ اجْتِنَابِ الْكَبَائِرِ لِلصَّغَائِرِ». انتهى كلامه.

وشاهد هذا من السنة: حديث البطاقة؛ فقد أخرج الترمذي أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**إِنَّ اللهَ سَيُخَلِّصُ رجلًا من أُمَّتي على رُءُوسِ الخَلائِقِ يومَ القيامةِ فينشرُ عليهِ تسعةً وتسعينَ سِجِلًّا، كلُّ سِجِلٍّ مثلُ مَدِّ البَصَرِ، ثُمَّ يقولُ، أَتُنْكِرُ من هذا شيئًا، أَظَلَمَكَ كتبَتِي الحافظونَ؟ فيقولُ: لا يا رَبِّ، فيقولُ أَفَلكَ عُذْرٌ؟ فيقولُ: لا يا رَبِّ، فيقولُ: بلى إِنَّ لكَ عندَنا حسنةً فإِنَّهُ لا ظُلْمَ عليكَ اليومَ، فتخرجُ بِطَاقَةٌ فيها أشهدُ أنْ لا إلهَ إِلَّا اللهُ، وأشهدُ أنَّ محمدًا عَبْدُهُ ورسولُهُ، فيقولُ: احْضُرْ وزْنَكَ، فيقولُ: ما هذه البِطَاقَةُ مع هذه السِّجِلَّاتِ؟ فقال: إِنَّكَ لا تُظْلَمُ، قال: فَتُوضَعُ السِّجِلَّاتُ في كَفَّةٍ، و البِطَاقَةُ في كَفَّةٍ، فَطَاشَتِ السِّجِلَّاتُ وثَقُلَتِ البِطَاقَةُ، فلا يَثْقُلُ مع اسْمِ اللهِ شيءٌ**»[1]. ما أعظم هذا الحديث وما أحسن وقعه في النفوس؛ هذا رجل من أمة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُصاح به على رؤوس الأشهاد يوم القيامة، ويُنشر له تسعةٌ وتسعون سجلًا، كل سجل منها مَدُّ البصر، كلها مشحونة بالسيئات والذنوب، فيوقن الرجل حينها بالهلاك، لكن الله ليس بظلام للعبيد، فتُخرج له بطاقة، أي رقعة صغيرة مكتوب فيها كلمة التوحيد: لا إله إلا الله، فلما وضعت سجلات السيئات في كفة من كفتي الميزان، ووضعت تلك البطاقة في كفة: كانت

(١) أخرجه الترمذي (٢٦٣٩)، وأحمد (٦٩٩٤).

النتيجة: أن ثقلت لا إله إلا الله بالميزان! رجح التوحيد، وأحرق نوره ظلمات المعاصي.

فبشراك يا من تُجدد التوحيد في قلبك ولسانك وتنبعث جوارحك بمقتضاه، وهنيئا لك السعادةُ التي تكتنفك من كل جانب.

فَأَسْــلِمِ الْوَجْــهَ لِمَــنْ أَحْيَــاكَا وَانْقُــدْ لَهُ تَلْــقَ غَــدًا مُنَــاكَا

التوحيد -أيها الفضلاء- هو الخير والهدى والنور. وكل ثمرة طيبة يانعة من خيري الدنيا والآخرة فإنها ثمرةٌ لتحقيق التوحيد.

التوحيد هو الأمن في الدنيا والآخرة، والهداية في العاجل والآجل.

التوحيد أهمّ المُهِمَّات، وأوَّل الأوَّليَّات، وأوجب الواجبات.

التوحيد: أعظمُ مأمور، وهو الحكمة من الوجود؛ ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ [الذاريات: ٥٦]، قال ابن قتيبة: «أي إلا ليوحّدون»[(١)].

التوحيد حق الله على العبيد.

التوحيد جِلاءُ القلوب، يُذْهِب عن النفوس أمراضها وأوضارها، وينقيها من خبثها.

التوحيد أساس سلام القلب وزكاء النفس وانشراح الصدر، به يصح العمل

(١) انظر: تأويل مشكل القرآن (ص: ٢١٧).

ويثبت الأجر ويتضاعف الثواب، وكل دليلٍ دل على فضل الإيمان فالتوحيد أول ما يندرج تحته، وإن وفَّق الله العبد إليه: سَلِم من مُضِلَّات الفتن، ولم يتخبط في ظلمات الشرك والبدع، وتحقَّقت له النجاة في المعاد والأمن يوم الفزع الأكبر.

التوحيد -يا وفد الرحمن- لُبُّ العبادة، والغاية منها، فإذا زال: ما انتفع الإنسان بما يقوم به من صور العبادة ولو أكثر. قال ابن قتيبة: «من وحّد الله فقد عبده، ومن جعل له ولدا أو ندّا، فليس من العابدين، وإن اجتهد!»[(١)].

التوحيد أول وأولى وأهمُّ أركان الإسلام، وكل أركان الإسلام وشرائعِه مبنيةٌ عليه، وراجعةٌ إليه، فـشهادة أن «لا إله إلا الله» هي الكلمة المُعبِّرة عن التوحيد، وبقية أركان الإسلام وجميع شرائعه راجعةٌ إليها، إذن التوحيد هو حقيقة دين الإسلام. فالسعيدُ الموفّق: من قال «لا إله إلا الله»، وعاش على «لا إله إلا الله»، ومات على «لا إله إلا الله».

(١) انظر: تأويل مشكل القرآن (ص: ٢١٧).

أيها الأحبة.. ها قد تشنفت الأسماع بطرفٍ من فضل التوحيد؛ **لكن ما هي حقيقته؟**

أهو نوع من الحلية التي يُتحلى بها، أم دعوى تدّعى؟ أم كلمة تقال لا تتجاوز الأفواه؟ ما هو هذا التوحيد النافع الذي هو شرط النجاة؟

أحضر يا رعاك الله قلبك للجواب، وأرخ سمعك:

حقيقة التوحيد: أن يُوحَّد العبد ربه فلا يُشركُ به شيئا؛ لا في ربوبيته، ولا في عبادته، ولا في أسمائه وصفاته.

حقيقته أن يشهد عطاءَ ربه وغناهُ وكرمه؛ وثمرة هذا أن لا يلتفتَ قلبه إلا إليه، ولا يعتمدَ إلا عليه، ولا يسألَ إلا إياه.

حقيقة التوحيد أن يكون الله العظيم عندك أحب من كل شيء، وأخوف من كل شيء، وأرجى من كل شيء. ويكون دينك كلُه -ظاهرا وباطنا- لله رب العالمين.

حقيقته: أن يُسلِم العبد لمولاه، لسان حاله ومقاله: «أسلمت لرب العالمين»؛ ينصاعُ لأمره، ويُصدّقُ قوله؛ فيسْلَم قلبُه وجوارحُه من ظلمات الشرك ودَنَسه، كبيره وصغيره.

حقيقته أن يكون سبحانه مُنتهى القصد وغايةَ المراد، أن يكون عنده أكبر من

كل شيء؛ في الحب والرجاء، والخوف والتوكل؛ إذ كل ما سوى الله يتلاشى عند تجريد توحيده.

حقيقته أن يجمع إلى توحيد المعبود توحيدَ المتبوع؛ فيوحدَ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الاتباع؛ فلا بدع ولا خرافات، ولا طريقةَ خَلَفية، وإنما لزوم طريقة واحدة لا نجاة إلا بسلوك سبيلها؛ طريقةِ محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَـٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾﴾ [الجن: ١٦].

حقيقة التوحيد: أن تؤمن بربوبية ربك ثم تفردَه بالعبادة؛ وحذارِ من تلبيس الملبسين!

التوحيد -أيها الموفق- ليس هو عبادةَ الله فحسب، إنما هو إفراد الله بالعبادة، فلا بد من الأمرين: النفي، والإثبات، ولا توحيد إلا بهما.

إفرادُ الله بالعبادة يعني: أن تُثبت العبادة لله عَزَّوَجَلَّ، وأن تنفيها عمَّا سواه.

أن تعتقد أن العبادة حقٌّ لله، وأن تؤديها له وحده، وأن تعتقد أنَّ صرفها لغيره باطل، هذا هو الإفراد: الجمع بين النفي والإثبات.

عبدَ الله.. الله ما خلقك لشيءٍ قطّ إلا للتوحيد، هذه هي القضية الكبرى في حياتك.

الله جَلَّوَعَلَا لم يخلقك يا عبد الله إلا لتكون موحدًا، فتوحدَه في ربوبيته فتعتقدَ

أن النفع والضُر بيده، وأنه لا يأتي بالحسنات ولا يدفع السيئات سواه، وأن تعتقد تفرده في عظمته وصفات جلاله وكماله وجماله، وأن توحده في عبادتك، في دعائك واستغاثتك واستعاذتك، في نذرك وذبحك وركوعك وسجودك.

مَعْنَـــاهُ أَنْ تُحَقِّقُـــوا الْعِبَـــادَهْ ... وَتُخْلِصُـــوا النِّيَّـــاتِ وَالْإِرَادَهْ

فِي الْخَـوْفِ وَالْحُـبِّ مَـعَ الرَّجَـاءِ ... وَالذَّبْـحِ وَالنَّـذْرِ مَـعَ الدُّعَاءِ

وَتَسْـتَعِينُوا تَسْـتَغِيثُوا تَخْضَـعُوا ... تَوَكَّلُـوا ثُـمَّ اسْـتَعِيذُوا وَاخْشَـعُوا

للهِ إِذْ جَمِيعُهَـــا يُسَـــمَّى ... عِبَـادَةٌ وَاللَّفْـظُ مِنْـهُ عَمَّـا

فَـصَـرْفُـهُ لِـغَـيْـرِهِ سُـبْـحَـانَـهُ ... شِرْكٌ بِـهِ مُخَـالِفٌ مَـنْ دَانَـهُ

حقيقة التوحيد -أيها المسلم-: البراء والولاء، البراء من عبادة غير الله، والولاء لله، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾﴾ [الزخرف: ٢٦-٢٧]، وقال أيضا ﴿يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾﴾ [الأنعام: ٧٨-٧٩].

حقيقته المحو والإثبات، فيمحو ما سوى الله عَزَّوَجَلَّ من قلبه؛ علمًا وقصدًا وعبادةً، ويثبت فيه إلهيته سبحانه وحده.

حقيقته الجمع والفرق، فيُفرِّق بين الإله الحق وبين من ادعيت له الإلهية بالباطل صديقا كان أم زنديقا، ويجمع تأليهه وعبادته وحبه وخوفه ورجاءه

وتوكله واستعانته على إلهه الحق، الذي لا إله سواه.

حقيقته التجريد والتفريد، فيتجردُ عن عبادة ما سوى العزيز الحكيم، ويفردُه وحده بالعبادة، فالتجريد نفي، والتفريد إثبات، ومجموعهما التوحيد.

هذا هو التوحيد المنجي، الذي به تنال السعادة والفلاح.

وأما التعلق بتوحيد الربوبية فحسب، وهو الذي أقر به المشركون عباد الأصنام؛ فهو توحيد مشترك بين المؤمنين والكفار، وأولياء الله وأعدائه، فلا يصير به وحده الرجل مسلما، فضلا عن كونه عارفا محققا.

وما أكثر الغالطين في هذا المقام؛ الذين يظنون أن من اعتقد أن الله هو الخالق الرازق صار مؤمنا موحدا، ولو استغاث بالأولياء واستجار بالأنبياء وعفر وجهه ساجدا لأصحاب الأضرحة، لا والله ما هذا هو التوحيد الحق، إنما هو اعتقاد أبي جهل وأبي لهب وإخوانهما الذين قال الله فيهم: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [الزخرف: ٨٧]، ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [لقمان: ٢٥].

أما اعتقاد أهل التوحيد حقا فما تنطوي عليه بواطنهم، وتصدع به ظواهرهم: ﴿إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٦٢-١٦٣].

فتحصّل أنه ليس التوحيدُ مجردَ إقرارِ العبد بأنه لا خالق إلا الله، وأن الله رب

كل شيء ومليكُه، إنما التوحيد مع هذا: محبةُ الله وتعظيمه، والخضوع له، والخوف منه، وكمال الانقياد لطاعته، وإخلاص العبادة له، وإرادة وجهه الأعلى بجميع الأقوال والأعمال، والمنع، والعطاء، والحب، والبغض.

ثم اعلم أيها الموفق أن التوحيد درجاتٌ ومراتب، يُسابق إليها المسابقون، ويتنافس فيها المتنافسون، وإن بلوغ مراتبه العليا يعني انجذاب الروح إلى الله عَزَّوَجَلَّ محبةً وخوفًا وإنابةً، وتوكلًا ودعاءً وإخلاصًا، وإجلالًا وهيبةً وتعظيمًا. فلا يرجو العبد سواه، ولا يخشى إلا إياه، ولا ينيب إلا إليه، ولا يتوكل إلا عليه، ولا يحب ما حرم، ولا يكره ما أمر، فيكون متحققًا بقول الله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾﴾ [النجم:٤٢]. فليس وراءه -سبحانه- غاية تطلب، وليس دونه غاية إليها المنتهى.

وهذا ما كان يربِّي النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أصحابه عليه، ففي صحيح مسلم من حديث عَوْفٍ الْأَشْجَعِيّ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، قَالَ: **كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، تِسْعَةً أَوْ ثَمَانِيَةً أَوْ سَبْعَةً، فَقَالَ: «أَلَا تُبَايِعُونَ رَسُولَ اللهِ؟» وَكُنَّا حَدِيثَ عَهْدٍ بِبَيْعَةٍ، فَقُلْنَا: قَدْ بَايَعْنَاكَ يَا رَسُولَ اللهِ، ثُمَّ قَالَ: «أَلَا تُبَايِعُونَ رَسُولَ اللهِ؟» فَقُلْنَا: قَدْ بَايَعْنَاكَ يَا رَسُولَ اللهِ، ثُمَّ قَالَ: «أَلَا تُبَايِعُونَ رَسُولَ اللهِ؟» قَالَ: فَبَسَطْنَا أَيْدِيَنَا وَقُلْنَا: قَدْ بَايَعْنَاكَ يَا رَسُولَ اللهِ، فَعَلَامَ نُبَايِعُكَ؟ قَالَ: «عَلَى أَنْ تَعْبُدُوا اللهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَالصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ، وَتُطِيعُوا -وَأَسَرَّ كَلِمَةً خَفِيَّةً- وَلَا تَسْأَلُوا النَّاسَ شَيْئًا» فَلَقَدْ**

رَأَيْتُ بَعْضَ أُولَئِكَ النَّفَرِ يَسْقُطُ سَوْطُ أَحَدِهِمْ، فَمَا يَسْأَلُ أَحَدًا يُنَاوِلُهُ إِيَّاهُ(١).

سبحان الله! موحدون، بل أعظم الناس -بعد الأنبياء- توحيدًا، ومع ذا فالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يطلب منهم أن يبايعوه على أن يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئا، واليومَ بعض الناس يقول: أكثرتم على الناس في التوحيد! الناس موحدون لماذا تكلموهم عن التوحيد، ولماذا تحذرونهم من الشرك؟ وفي تلك الحقبة المنيرة في عصر النبوة كان المجتمع المسلم في عافية من الشرك، ومع ذلك فالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يطلب من أكمل الأمة توحيدا أن يبايعوه على التوحيد! لأن المطلوب هو الثبات على التوحيد، والتذكير به: من أسباب الثبات عليه.

ثم إنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أخذ العهد عليهم أن لا يسألوا الناس شيئًا، وذاك لتكون قلوبهم معلَّقة بالله وحده، لا تقصد غيره، ولا تطمع إلا في فضله؛ وهذا شأن كُمَّل الموحدين؛ قلوبهم منجذبة إلى مولاهم جَلَّ جَلَالُهُ، إراداتهم وقصودهم، وحركاتهم وسكناتهم ورغباتهم: كلها متوجهة إلى الباري سبحانه، فما أهنأ حالهم ومآلهم!

إن الموحد الصادق هو من حقق التوكل على الحي الذي لا يموت، وصدق اللَّجأ إليه والتفويض له؛ لأنه يعلم أن الأمر كله لله، ولذا فلا يلتفت لغيره، ولا يعتمد إلا عليه، ولا يثق إلا به.

الموحد الصادق لا يخاف إلا الله؛ لا جِنًّا ولا سحَرةً ولا مشعوذين ولا

(١) أخرجه مسلم (١٠٤٣).

مَجاذِيب، ولا يحمل همًّا لرِزق، ولا يهاب أحدا إلا خالقه، ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوۡلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمۡ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ١٧٥﴾ [آل عمران:١٧٥].

الموحد الصادق يُوقِن أن ما أصابه لم يكن ليُخطئه، وما أخطأه لم يكن ليُصيبه، وأن الناس مهما كانوا لا ينفعون ولا يضرون إلا أن يشاء ربي شيئًا، بخلاف من علق قلبه وأناط توكله بمَن لا يملك مثقال ذرَّة في السماوات ولا في الأرض؛ من ميت أو خيط أو تميمة أو غيرها؛ فإنه لا لعُبودية ربه حقق، ولا لِما طمحت إليه نفسه وصل، فما أحراه بالخِذلان، وما أجدره بنصيب من قوله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمۡ عِزّٗا ٨١ كَلَّاۚ سَيَكۡفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمۡ وَيَكُونُونَ عَلَيۡهِمۡ ضِدّٗا ٨٢﴾ [مريم:٨١- ٨٢].

الموحد الصادق هو -وحده- من نال الحرية الحقيقية، فإنه لمّا أخلص عُبوديته لربه: تحرر من العبودية الزائفة؛ عُبوديةِ الهوى والشيطان، ومن رِقّ الخرافة؛ فلم يتعلق بقبر أو حجر، أو بُرج أو كوكب، أو سوارٍ أو طاقة زائفة.

إنه عبْدُ الله لا عبدُ غيره، عزيزٌ برَبّه، تقوده محبته وتعظيمه، ويسوقه خوفه ورجاؤه، ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ شُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ١٩٥ إِنَّ وَلِيِّۦَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ١٩٦ وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسۡتَطِيعُونَ نَصۡرَكُمۡ وَلَآ أَنفُسَهُمۡ يَنصُرُونَ ١٩٧﴾ [الأعراف: ١٩٥-١٩٧].

الموحد الصادق هو الذي حقق الإخلاص لله، لأنه يعلم أن الخير لا يكون

إلا من عنده، فهو الذي يأتي بالحسنات، ويدفع السيئات، وهو الذي يوفِّق يخذل، فالخير كله منه والأمر كله بيده. فلأي شيء يتعلق قلبه بغيره؟ ولِم يقصد سواه؟ ولماذا يتعبد لمخلوق مثله لا ينفع ولا يضر؟ وما أحسن ما قال الفضيل بن عياض رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «من عرف الناس استراح»، أي استراح من هَمِّ التعلق بهم، والتعبُّد لهم، والتزيُّن من أجلهم، استراح من هذا العبء كله؛ لأنه يعلم أن الناس لا ينفعون ولا يضرون، مدحوا أم ذموا؛ فلن يقدِّموا ولن يؤخروا، قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«واعلَمْ أنَّ الأمَّةَ لو اجتمَعَت على أن ينفَعوك بشيءٍ لم ينفَعوك إلَّا بشيءٍ قد كتَبه اللهُ لك، ولو اجتمَعوا على أن يضُرُّوك بشيءٍ لم يضُرُّوك إلَّا بشيءٍ قد كتَبَه اللهُ علَيك؛ رُفِعَت الأقلامُ، وجَفَّت الصُّحُفُ»**(١).

الموحد المحقِّق عزيزُ نفس، لا يذِل لمخلوق، ولا يريق ماء وجهه له؛ لأنه يعلم أن المقدَّر له من الرزق مكتوبٌ عند مولاه، وهو بيده -سبحانه- لا بيد غيره، فهو مستيقن بقوله تعالى: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الذاريات: ٢٢]. ومن كانت هذه سجيتُه: زال من قلبه الحسد؛ لأنه لا يلتفت إلى المخلوقين، ولا يبالي بهم أصلًا، إذ قلبه معلقٌ بالله؛ فأنى يخالطه الحسد؟

المحقق للتوحيد أبعد الناس عن الطمع، قنوعٌ غني، قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«لَيْسَ الغِنَى عَنْ كَثْرَةِ العَرَضِ، وَلَكِنَّ الغِنَى غِنَى النَّفْسِ»**(٢)؛ ومن أولى بهذا الغنى

(١) أخرجه الترمذي (٢٥١٦)، وأحمد (٢٦٦٩).

(٢) أخرجه البخاري (٦٤٤٦)، ومسلم (١٠٥١).

الحقيقي من الموحد؛ وهو الذي عظُم تعظيمُه لربه؛ فلم يكبُر في عينه أحد، ولسان حاله يُنشد:

إِذَا صَحَّ مِنْكَ الوُدُّ فَالكُلُّ هَيِّنٌ ... وَكُلُّ الَّذِي فَوْقَ التُّرَابِ تُرَابُ

الموحد الصادق كملت محبته لمعبوده الودود جل في علاه ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبّٗا لِّلَّهِۗ﴾ [البقرة: ١٦٥]؛ فقلَّت المحبوبات في قلبه، ولم يتقطع قلبه عليها حسرات.

إن كَانَ رَبُّكَ وَاحِدًا سُبحَانَهُ ... فَاخصُصهُ بِالتَّوحِيدِ مَع إحسَانِ

أو كَانَ رَبُّكَ وَاحِدًا أنشَاكَ لَم ... يَشرَكهُ إذ أنشَاكَ رَبٌّ ثَانِ

فكَذَاكَ أَيْضاً وَحْدَهُ فاعْبُدْهُ لا ... تَعْبُدْ سِوَاهُ يَا أَخَا العِرْفَانِ

فلِوَاحِدٍ كُنْ وَاحِدًا في وَاحِدٍ ... أَعْنِي سَبِيلَ الحَقِّ والإِيمَانِ

هَذِي ثَلاثٌ مُسْعِدَاتٌ لِلَّذِي ... قَدْ نَالَهَا والفَضْلُ للمَنَّانِ

فَإِذَا هِيَ اجْتَمَعَتْ لِنَفْسٍ حُرَّةٍ ... بَلَغَتْ مِنَ العَلْيَاءِ كُلَّ مَكَانِ

أيها الفضلاء.. لا يتم الكلام عن التوحيد إلا بمعرفة ضده، وهو الشرك.

وإن المتأمل في القرآن والسنة يجدهما مملوآن من تعظيم التوحيد بالدعاء إليه والترغيب فيه، وبيان سعادة أهله، وتعظيم الشرك بالنهي عنه والتحذير منه وبيان شقاوة أهله.

بل إن الشريعة المحمدية قد جاءت بسدِّ أَدقِّ المنافذ إلى الشِّرْك، حتى إنها منعت رَفع القبور، والبناء عليها، وإنارتها، وتجصيصها، والصلاة عندها أو إليها، فهذه وغيرها كثير: ذرائع ووسائل قد تُفضي إما حالًا، وإما مآلًا إلى الوقوع في الشرك، فَسَدَّت الشريعةُ الذريعة وحسمت الباب.

وكان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُعلم أصحابه تجريد التوحيد، فقال: «**لا تَقُولوا: ما شاءَ الله وشاءَ مُحَمَّدٌ، ولكِنْ قُولوا: مَا شَاءَ الله ثُمَّ شَاءَ مُحَمَّدٌ**»(١)، وقال له رجل: **مَا شَاءَ اللهُ وَشِئْتَ، فَقَالَ: «أَجَعَلْتَنِي للهِ نِدًّا ، بَلْ مَا شَاءَ اللهُ وَحْدَهُ»**(٢).

إن التوحيد والشرك ضدان لا يجتمعان؛ فلا توحيد إلا باجتناب الشرك، ومتى وقع الشرك زال التوحيد؛ فالشرك هو النجاسة التي تنقض طهارة التوحيد في حق من تلبس به.

الشرك .. إنه الجريمة الكبرى، إنه الذنب الأعظم!

(١) أخرجه ابن حبان (٥٧٢٥)، وأبو داود (٤٩٨٠) باختلاف يسير.

(٢) أخرجه النسائي في الكبرى (١٠٨٢٤).

ففي الصحيحين عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: **سَأَلْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَيُّ الذَّنْبِ أَعْظَمُ عِنْدَ اللهِ؟ قَالَ: «أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ»**[(١)].

وَالشِّـرْكُ فَـاحذَرهُ فَشِـرْكٌ ظَـاهِـرٌ ... ذَا القِسْـمُ لَيسَ بِبَقا بِل الغُفرَانِ

وَهُـوَ اتِّخَـاذُ النِّـدِّ للـرَّحمَنِ ... أَيًّا كَانَ مِـنْ حَجَـرٍ وَمِـنْ إِنْسَـانِ

يَـدعُوهُ أو يَرجُـوهُ ثُـمّ يَخَافُـهُ ... وَيُحِبُّـهُ كَمَحَبَّـةِ الدَّيَّـانِ

واعلم يا رعاك الله أن الشرك ليس هو إنكار وجود الله، وليس الشركُ أن لا يُعبد الله، كلا! حقيقة الشرك هو جمع غير الله مع الله فيما لا يجوز إلا له وحده؛ وعليه فالعبادةُ حقٌ خالصٌ لله عَزَّوَجَلَّ، فمن عبد الله وعبد غيره فقد أشرك.

وَصَرْفُ حَـقِّ اللهِ لِلْمَخْلُـوقِ ... ظُلْـمٌ عَظِـيمٌ جَـاءَ فِي الْمَنْطُـوقِ

لَـوْ قَـدَرَ الْإِلَـهَ حَـقَّ الْقَـدْرِ ... مَا قَالَ يَـا مَعْـرُوفُ أَوْ يَـا لُبَـدْرِي

فتبين أنه لا يجوز بحال أن يشارِكَ اللهَ في العبادة أحدٌ، وما كان المشركون الذين بعث فيهم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلا على هذه الحال.

هؤلاء الذين كفرهم وقاتلهم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كانوا يعبدون الله ويعبدون غيره.

كانوا يحجون لكنهم لا يوحدون؛ فكانوا يقولون في تلبيتهم: لبيك لا شريك لك إلا شريكا هو لك تملكه وما ملك!

(١) أخرجه البخاري (٤٤٧٧)، ومسلم (٨٦).

فكن -يا أيها المسلم- على حذر؛ فإن من وقع في الشرك لم يكن مؤمنًا بأنه تعالى الواحد الأحد.

من دعا غير الله أو سجد لغير الله أو أحب غير الله كحب الله أو نذر لغير الله أو تبرّك تبركًا شركيـًا أو فعل غيرَ ذلك من أنواع العبادة والتعلُّقِ والقصد لغير الله فإنه يكون قد وقع في حفرة عظيمة من حفر الكفران والنيران. ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾﴾ [النساء: ٤٨]، ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾﴾ [النساء: ١١٦]، ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾﴾ [الحج: ٣١].

حَذارِ؛ فالجنة غالية ولا يمكن أن تصل إليها إلا بالإيمان بالله وتوحيده، والمشرك آيسٌ من رحمة الله، إذ لا يدخل الجنة إلا نفسٌ مؤمِنة موحدة، ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾﴾ [المائدة: ٧٢].

حذارِ من أن يضلك إبليس أو يلبِّسَ عليك، أو يُشبِّهَ شياطينُ الإنس؛ فيزيّنون لك الشرك في صورة تعظيم الأولياء ومحبة الأنبياء والتوسل بهم وما إلى ذلك، فهذا من زخارف الشيطان التي يضل بها الجهال على ألسنة أوليائه ليقعوا في هذا الْمَهْيَعِ الخطير.

لِلّهِ حَـــقٌّ لا يَكُـــونُ لِغَـــيْرِهِ وَلِـعَـبْـدِهِ حَـقٌّ هُـمَـا حَـقَّـانِ

لا تَجْعَلُوا الحَقَّيْنِ حَقًّا وَاحِدًا مِنْ غَيْرِ تَمْيِيزٍ ولا فُرْقَانِ

احذر -عبدَ الله- من الشرك بالله؛ فإن خطره عظيم؛ فلا تعاند، ولا تغامر، واخضع لسلطان الحق، وإياك أن تأخذك حميةٌ جاهلية، أو عزةٌ بالإثم، فالخسارة هنا ليست قابلة للاستدراك!

﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعۡبُدُ مُخۡلِصٗا لَّهُۥ دِينِي ١٤ فَٱعۡبُدُواْ مَا شِئۡتُم مِّن دُونِهِۦۗ قُلۡ إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ ١٥ لَهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ ظُلَلٞ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحۡتِهِمۡ ظُلَلٞۚ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥۚ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ١٦ وَٱلَّذِينَ ٱجۡتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعۡبُدُوهَا وَأَنَابُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰۚ فَبَشِّرۡ عِبَادِ ١٧﴾ [الزمر: ١٤-١٧].

واعلم -أيها المؤمن- أن في آخر الزمان تكثر فتنة الشرك؛ فقد قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما في مسند أحمد: «**لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَلْحَقَ قَبَائِلُ مِنْ أُمَّتِي بِالْمُشْرِكِينَ، وَحَتَّى تَعْبُدَ قَبَائِلُ مِنْ أُمَّتِي الْأَوْثَانَ**»(١)، وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما في صحيح مسلم: «**لَا يَذْهَبُ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ حَتَّى تُعْبَدَ اللَّاتُ وَالْعُزَّى**»(٢)، فشأن الشرك عظيم وخطره كبير.

وهو مع ذا أمر ليس بالمستحيل، وبعض الناس إذا تكلم المتكلم عن الشرك وخطره: ظن أن القضية قضيةٌ خيالية أو مستحيلة لا يمكن أن تقع! والأمر ليس

(١) أخرجه أبو داود (٤٢٥٢).

(٢) أخرجه مسلم (٢٩٠٧).

كذلك. ﴿قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾﴾ [الأنعام: ٧١].

إذن هذا أمرٌ ينبغي الحذر منه، ومن أهله؛ فما أكثرَ من يزين الشرك!

بل إن من أهل زماننا من يشرك شركا ما وصل إليه المشركون الأولون! المشركون الأولون الذين كفّرهم الله، وجاهدهم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه؛ ما وصلوا إلى بعض ما وصل إليه المشركون المتأخرون!

فالمشركون الأولون كان يقول أحدهم ما علمتَ: لبيك لا شريك لك إلا شريكًا هو لك تملكه وما ملك.

يشرك المشرك بالله نعم، ولكنّ معبوده معبود صغير لا قيمة له عنده أمام عظمة الله العظيم، ولذا يعتقد أن الله يملكه وما مَلَك، وكانوا في الشدة يخلصون دعاءهم؛ فلا يدعون إلا الله، قال تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُواْ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [العنكبوت: ٦٥].

فأين هذا من شرك المتأخرين؟! ألم تسمع إلى ما قال قائلهم يستغيث بأحد الأولياء:

رُحْمَاكَ أَرْجُو يَا أَبَا الفِتْيَانِ فِي ... خَطْبٍ أَهَاجَ القَلْبَ مِنْ حَسَراتِهِ

مَـا لِي سِـوَاكَ أَرُومُـهُ فِي كَشْـفِهِ أَوْ أَرْتَجِـــي إِنْ ضِقْتُ مِنْ وَثَبَاتِهِ
عَارٌ عَلَيْـكَ إِذَا تَـرُدُّ خُوَيْـــدِمًا قَصِرَ الفُـؤَادَ عَلَيْـكَ فِي حَاجَاتِـهِ!

فؤاده كله مقصور على معبوده الذي في قبره، وليس لله عنده قدرٌ يدعوه إلى أن يتوجه إليه، والمصيبة التي نزلت به لا يعرف أحدا يكشفها إلا وليّه المقبور في قبره! أما غياث المستغيثين ومن بيده ملكوت كل شيء -سبحانه- فلا يعرفه! ذلك ظن المشرك بربه؛ ﴿ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ ٱلنَّارِ ٢٧﴾ [ص: ٢٧]. فباللهِ أين شرك الأولين من هذا الشرك؟

ألم تسمع ذاك الشاعر الذي كان يخاطب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في قصيدة مشهورة، وفيها يقول:

مَـا جِئْـتُ بَابَـكَ مَادِحًا بَلْ دَاعِيًا وَمِـنَ المَـدِيحِ تَـضَـرُّعٌ وَدُعَـاءُ
أَدعوكَ عَن قَومي الضِـعافِ لِأَزمَةٍ في مِثلِهـا يُلـقى عَلَيـكَ رَجـاءُ

الرجاء في كشف هذه الكُرَب عن هذه الأمة إنما يُلقى على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وليس إلى الله الذي لا يكشف الكرب سواه.

ألم تسمع ذاك الذي يطرب بعض الناس وهم ينشدون قصيدته التي يمدح فيها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقوله:

مَا سَامَنِي الدَّهْرُ ضَيْمًا وَاسْتَجَرْتُ بِهِ إِلَّا وَنِـلْـتُ جِـوَارًا مِنْهُ لَـمْ يُضَـمِ

وَلا الْتَمَسْتُ غِنىَ الداريْنِ مِنْ يَدهِ إلَّا اسْتلَمْتُ النَّدَى مِنْ خيْرِ مُسْتلِمِ

فأين الله الذي يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء؟ صدق الله: ﴿أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [الطور: ٤٣].

إن هؤلاء الذين بخسوا حظ أنفسهم، فأشركوا مع الله غيره، واتخذوا القبور وأصحابها أوثانًا: تجد أنه يهون عندهم توحيد الله وعبادته، ويعظمون ما اتخذوه من دون الله شفعاء، حتى إن طوائف منهم يستخفون بحج البيت وبمن يحج البيت، ويرون أن زيارة أئمتهم وشيوخهم وأضرحتهم أفضلُ من حج البيت، وتجد أحدهم يحلف بالله يمينا غموسا كاذبة ولا يبالي؛ ولا يجترئ أن يحلف بشيخه كاذبًا.

وآخرون منهم يستخفُّون بدعاء الله وحده، ويرون أن دعاء شيوخهم أفضل. والحق الذي دل عليه الوحي صريحا أن دعاء غير الله من الأموات أو الغائبين هو عين الشرك الأكبر، ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُواْ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٠﴾﴾ [الجن: ٢٠].

وَدَعْـوَةُ الْأَمْـوَاتِ تُبْطِـلُ الْعَمَـلْ وَتَسْـلَخُ الْإِيمَانَ خَابَ مَنْ فَعَلْ

ومن عجيب ما يذكر هنا ما ذكر صاحب تفسير المنار في أواخر تفسير سورة الأعراف: أنه سمع امْرَأَةً تَدْعُو وَتَسْتَغِيثُ فِي أَمْرٍ أَهَمَّهَا: يَا مَتْبُولِيُّ يَا مَتْبُولِيُّ. قال: فَقُلْتُ لَهَا بَعْدَ أَنْ هَدَأَ رَوْعُهَا: لِمَاذَا تَدْعِينَ الْمَتْبُولِيَّ وَلَا تَدْعِينَ اللهَ تَعَالَى؟ قَالَتْ: الْمَتْبُولِيُّ مَا «يستناش» - أَيْ لَا يُهْمِلُ، وَلَا يَتَأَخَّرُ فِي إِجَابَةِ مَنْ دَعَاهُ وَاسْتَغَاثَ بِهِ!

وإنا لله وإنا إليه راجعون. لقد كذبت وصدق الله: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾ [النمل: ٦٢]. أما المتبولي أو غيره من الأموات فيصدق فيهم قوله تعالى: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُواْ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُواْ مَا ٱسْتَجَابُواْ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾﴾ [فاطر: ١٤].

وقال الألوسي في تفسيره عند تفسير سورة النحل: «ومما تقشعر منه الجلود، وتُصعَّرُ له خدودُ الكفرة أصحاب الأخدود، فضلا عن المؤمنين باليوم الموعود؛ أن بعض المتشيخين قال لي وأنا صغير: إياك ثم إياك أن تستغيث بالله تعالى إذا خطبٌ دهاك! فإن الله تعالى لا يعجل في إغاثتك ولا يهمه سوء حالتك وعليك بالاستغاثة بالأولياء السالفين فإنهم يُعجِّلُون في تفريج كربك ويهمهم سوء ما حل بك! فمج ذلك سمعي، وهمى دمعي، وسألت الله أن يعصمني والمسلمين من أمثال هذا الضلّال المبين، ولكثير من المتشيخين اليوم كلمات مثل ذلك». انتهى كلامه.

هذا ظن المشركين برب العالمين، ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [فصلت: ٢٣]، أما المؤمن الموحد فيقول: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُواْ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا ﴿٤٨﴾﴾ [مريم: ٤٨].

وذكر النَّعْمي في كتابه «معارج الألْباب» أنَّ امرأة عَظُم عليها جدًا أنَّ قُبَّةً أو

ضَريحًا تهدَّم على مَن تعْتقد فيه أنه من الأولياء الذين يملكون الضر والنفع، فكانت تصيح وتقول:

مَن يَشْفِي لَنَا مَرْضانا ... مَن يَحْمِي لَنَا حِمَانا! تظنُّ أنَّ الأمور انتهتْ بعد هذا الضريح الذي تهدَّم!

لقد ارْتكس هؤلاء إلى قدْر من الشرك ما وصل إليه المشركون الأوَّلون.

إن الشرك داهيةٌ عظيمة، بل شرٌ وبيل، ولا ينجو منه إلا من جرّد توحيدَه وعَظُمَ تفريدُه لله.

لا ينجو منه إلا الذي أيقن أن ربه هو الواحد الأحد الصمد، الذي يُقصد بجميع أنواع العبادة، ومنها الدعاء، ﴿۞وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ فَإِيَّيَ فَٱرۡهَبُونِ ٥١﴾ [النحل:٥١].

إِنّ مَـــــنْ أَشْرَكَ بـــــاللهِ جَـــهُـــولٌ بِـــالـــمَـــعَـــانِي
أَحْـــــوَلُ العَقْـــــلِ؛ لِهَـــــذَا ظَـــــنَّ لِلوَاحِـــــدِ ثَـــــانِي!

وصايا خاتمة

الوصيَّة الأولى:

اعلم أيها الموفقُ أن التوحيد يحتاج إلى تجديد وتعاهد، ولذا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سنَّ لأمته قراءة سورتي الكافرون والإخلاص في صلواتٍ مشروعة، وهذا فيه نكتةٌ لطيفة؛ فهاتان السورتان تشتملان على خلاصة بيان التوحيد العلمي والتوحيد العملي، والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يقرأ بهما في راتبة الفجر، وذلك حتى يكون افتتاح اليوم بتجديد العهد بالتوحيد، وكان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يختم يومه بقراءة هاتين السورتين في سنة المغرب، حتى يختم يومه أيضًا بتجديد العهد بالتوحيد، وكذلك كان يفعل صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في ختم ليلته، فإنه كان يقرأ بهما في آخر ركعتين في صلاة الوتر؛ وذلك والله أعلم حتى يكون موضوع التوحيد حاضرا في ذهن المسلم، فإنَّ هذه الحياة مليئةٌ بالـمُشْغِلات والصوارف والملهيات التي قد تُضعف التوحيد، فيحتاج المسلم إلى تذكير نفسه به.

وكذلك كان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقرأ بهما في ركعتي الطواف، وذاك -والله أعلم- لأنَّ هذا البيت -كما علمتَ- إنما أُسس على أساس عظيم من التوحيد، ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا﴾ [الحج:٢٦]، فإذا طاف الإنسان بالبيت

العتيق: ذكّر نفسه بهذه الحقيقة، فيقرأ ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢﴾ [الكافرون]، و ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢﴾ [الإخلاص].

الوصيَّة الثانية:

اعلم أيها الموفق أن التوحيد صافٍ جدًا، وكلما كان الشيء صافيًا تأثر بأدنى شيء، وتشوش بأدنى شيء، فتنبه إلى هذا الملحظ المهم.

التوحيد ألطف شيء وأنزهه وأنظفه وأصفاه، فأدنى شيء يخدشه ويدنسه ويؤثر فيه؛ فهو كأبيض ثوب يكون؛ يؤثر فيه أدنى أثر، وكالمرآة الصافية جدا: أدنى شيء يؤثر فيها، ولهذا تشوشه اللحظة واللفظة والشهوة الخفية، فإن بادر صاحبه وقلع ذلك الأثر بضده وإلا استحكم وصار طبعا يتعسر عليه قلعه.

فالمسلم إذن مُطالبٌ أن يدقق ويراقب نفسه ويحرص على صفاء توحيده من المكدرات، وما أكثرها في هذا العصر الذي نعيش فيه.

احفظ الله يحفظك.. يحفظك في دينك ودنياك وأُخراك.

رابط على ثغور قلبك وجوارحك، تجافَ عن كل ما يؤثر في توحيدك؛ سواء كان ذلك مما يقدح في كمال التوحيد الواجب، أو في كمال التوحيد المستحب، ومن باب أولى ما ينقُض التوحيد من أصله. احفظ أوامر الله وحدوده، ومن أعظم ذلك: حفظُ التوحيد عن أن يطرأ عليه ناقضٌ أو قادح، هذا أولى ما عُنيت بحفظه يا عبد الله، وثق أنك إن لقيت الله بذلك فإنك ناجٍ فائز.

الوصيَّة الثالثة:

ينبغي أن يُعلم أن الخوف الصادق من الشرك يستدعي العلم به وبمداخله، فالمجهول لا يُخاف، وكلُّ من كان بالشر أعرف كان منه أخوف. فمن أراد أن يبلغ الدرجة التي بلغها الصالحون من الخوف من الضلال، فعليه أن يعرف أصوله وفروعه، ودقائقه وذرائعه؛ وإثمه وعقابه؛ فينبعث في قلبه خوف صادق منه. ولذا كان أكملَ الناس في هذا المقام أصحابُ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ورضي عنهم؛ حيث كانوا أعلم بالحق، وأعلم بالباطل، كانوا أقوم بالحق، وأبعد عن الباطل. والتوحيد لا يقوم ساقه إلا على هذين الأمرين: العلمِ بالحق والتزامِه، والعلمِ بضده واجتنابِه. ومن قصّر في واحدٍ منهما دخل عليه من الخلل بحسب ذلك، وما أحسن ما يُروى عن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: «إنما تُنقَض عُرى الإسلام عروةٌ عروة، لمن نشأ في الإسلام ولم يعرف الجاهلية»، فالموفقون السعداء هم الذين يعلمون الحق بتفاصيله، ويُوفقون إلى التزامه، وهم أيضًا الذين يعلمون الباطل بتفاصيله، ويُوفقون إلى اجتنابه. أما الذي هو سادر في هذه الحياة، لا يفرق بين خير وشر، وإيمان وكفر، ونور وظلمة، فما أسرع أن يقع في العطب، والله المستعان.

إن تعلم التوحيد ضرورة لا ينبغي التهاون فيها.

لابد من أن تتعلم التوحيد، ولابد أن تكون راسخًا فيه؛ حتى تكون على حذر، أما الجاهل بالتوحيد فربما يقول أو يفعل ما يُخالِفُهُ بل ما يُضادُّهُ وهو لا يدري،

وهو مُقَصِّرٌ؛ لأنه ما تعلّم.

فالعلم بالتوحيد أهم العلوم، عِلمُ التوحيد علمٌ يدور على العلم بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وإذا كان الله أكبر من كل شيء فالعلمُ به أكبر من كل علم، وإذا كان الله أعظمَ من كل شيء فالعلمُ به أعظمُ من كل علم.

وماذا تكون قد عَلِمْتَ إذا كنتَ تجهل ربك وصفاته وحقه عليك!

أعود فأقول: من أهم المهمات وأوّلِ الأوّليات العنايةُ بعلمِ التوحيد؛ دَرْسًا وحِفْظًا ومُطالعة، وأن تكون متأملاً في نصوصه وآياته، ليكن هذا منك على بال، وأَوْلِه ما يستحق من الاهتمام.

الوصيَّة الرابعة:

على المسلم الذي رزقه ربه حب الإسلام والانقياد له بالتوحيد: أن يحمد لله، وأن يسعى في شكر هذه النعمة التي لا نعمة أعظم منها، وعليه أيضًا أن يسعى السعي الحثيث في الثبات على هذا التوحيد، ومن أسباب الثبات أن يخاف من الشرك، فخوفه دافعٌ له إلى أن يتعلم ومن ثمَّ أن يتحرَّز، وإلا فإنَّه إذا استهان في الأمر فما أقرب الخلل بل العطب، ثم إذا نظر إلى حال المضيعين التائهين: ازداد حمدا لله على ما أنعم، وازداد خوفه ووجله، وازدادت رغبته إلى الله أن يقيه هذا المصرع.

واجْعَلْ لِوَجْهِكَ مُقْلَتَيْنِ كِلاَهُمَا ... مِنْ خَشْيَةِ الرَّحْمَنِ بَاكِيَتَانِ

لَوْ شَاءَ رَبُّكَ كُنْتَ أَيْضًا مِثْلَهُمْ ... فالقَلْبُ بَيْنَ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ

احمد الله يا أيها الموحد واشكره، وانطرح بين يديه وسله الثبات، سله أن يثبتك على هذا التوحيد حتى تلقاه، وادعُ ربك بضراعة وبصدق أن يجنبك عبادة الأصنام، وأن يقيَك الشرك كله جليَّهُ وخفيه، سل ربك دائمًا «اللهم إني أعوذ بك من أن أشرك بك شيئًا وأنا أعلم وأستغفرك لما لا أعلم».

إنه كلما عظُم الضلال وكثر انتشاره؛ فالخوف منه ينبغي أن يكون أعظم، والتحصين ضده ينبغي أن يكون أكبر. وتأمل معي قول الخليلِ إبراهيمَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾﴾ [إبراهيم:٣٥]. إبراهيم إمام الحنفاء وأبو الأنبياء، ومع ذلك يخاف على نفسه من الشرك! فماذا يقول من سواه؟ وصدق التابعي الجليل إبراهيم التيمي حين قال: «مَنْ يَأْمَنُ مِنَ الْبَلَاءِ بَعْدَ خَلِيلِ اللهِ إِبْرَاهِيمَ»! إذن: الخوف من الكفر والشرك والضلال من المقامات الرفيعة لأهل الإيمان، فكلما كان الإنسان أعظم إيمانا، كان أعظم خوفا من الوقوع في ضده. وتأمل التعليل في قوله: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ [إبراهيم:٣٦]. فمن سبب الخوف من الضلال: كثرة الواقعين في حفرته، إذ كلما كان الداءُ منتشرًا كان أخطر؛ لأن احتمال الإصابة به أكبر. وإذا كان الوقوع في الضلال قديما مخوفا؛ فإنه ينبغي أن يُخاف منه في هذا الزمان أكثر، فإن الشُبه التي تُحسِّنه وتقربه إلى النفوس، وتزين الانسلاخ من التوحيد أضحت أقرب من السابق، فسيل الشبه الجارف يُقذف اليوم على الناس قذفا من خلال وسائل التواصل والاتصال الحديثة، وهذا مما لا يخفى على البصير.

الوصيَّة الخامسة:

إذا مَنَّ الله عليك بالعلم -علم التوحيد- والعمل به: يبقى عليك واجبُ الدعوة إلى هذا التوحيد؛ المقام ليس مقام تَرَفٍ وتفضل، إنما هو مقامٌ متعينٌ وحتمٌ لازم على كل موحد، الدعوة إلى التوحيد أمرٌ واجب يا أهل التوحيد، وهو من أداء حق التوحيد.

فالله الله بالجد والاجتهاد وبذل الوسع في الدعوة إلى التوحيد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وبذل النصيحة، نحن في زمن غربة قلَّ فيه العلم وفشا الجهل وانتشرت الأهواء، فلا ينبغي لمن بصّره الله وأنار قلبه وبصيرته أن ينطوي وهو يرى حرمات الله تُنتهك، وهو لا يُحرك ساكنًا.

أسأل الله جَلَّوَعَلَا أن يُعينني وإياكم على طاعتهِ ومرضاته، وأن يُسدد أقوالنا وأعمالنا، وأن يرزقنا الإخلاص والسداد والهداية والقبول، وأن يغفر لنا ولوالدينا ولولاة أمورنا وللمسلمين والمسلمات الأحياء منهم والأموات.

ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب

أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ

رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ

رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ

رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ

وصلى الله على سيد ولد آدم، وعلى آلِهِ وصحبه وسلم تسليما كثيرا.